مجلة الاتحاد العربى للنشر العلمى
الإصدار الواحد والعشرون
المجلد (٥) العدد (٢٠)
(١-٨) ٢٠٢٤

United Arab Scientific Publishing Company

مجلة الاتحاد العربى للنشر العلمى

الخطاب العربي والتلقي

اسماء نادر الأحمد
(باحثة بسلك الدكتوراة جامعة محمد الخامس)

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١ أكتوبر ٢٠٢٤ م

الملخص:

إن ما يميز الخطاب هو هذا التنوع الذي يتضمنه من كفايات تعبيرية ولغوية، واستثماره للمتخيل والرمز والإديولوجيات المختلفة من خلال الانفتاح على ما هو اجتماعي، والذي يشكل المتلقي فيه عنصرا مهما لا يمكن فصله عنه، لدرجة أنه صار في كل الخطابات الحديثة مشاركا في العمليات التخاطبية الإبداعية والفنية من خلال إعادة نسج خيوطها، وتجاوز ذلك إلى إحداث فوضى في ترتيبها مما جعل منه بنية مفتوحة في تطور دائم، ينفلت من كل التحديدات، ويخرق كل التنظيرات.

لقد حظي مفهوم الخطاب باهتمام الدراسات الحديثة، سواء عند العرب أو عند الغرب؛ فمنها ما هو لغوي لساني، ومنها ما هو فلسفي وديني ... الخ، مما يدل على تعدد زوايا هذا المفهوم، فهو يتحول بتحول السياق، والموضوع الذي يشتغل عليه، إذ "لا يعرِّف الخطاب سوى نفسه (سياقه) وسوى موضوعه وتعبيره المباشر، ولغته... كل خطاب آخر موضوع خارج سياقه الخاص، ما هو إلا كلام محايد (لا يرجع لأي أحد)" ومنه يمكن أن نخلص إلى أن:

الموضوع + السياق= الخطاب

الكلمات المفتاحية : (الخطاب – التلقى – السياق – اللسانيات – الحدث – الخطاب)

ذلك لأن الخطاب لا يمكن له أن يوجد في انفصال عن الموضوع اوالسياق إلى درجة أنه يعتبر "بمثابة حدث: أي أن شيئا ما يحدث عندما يتكلم أحدنا، وتفرض هذه النظرية، نظرية الخطاب كحدث"٢

وهو ما سنجده مع اللساني الفرنسي "إميل بنفنيست" الذي ذهب إلى الأبعد في هذا الاتجاه. فبالنسبة إليه،" تنهض لسانيات الخطاب ولسانيات اللغة على وحدات مختلفة، فإذا كانت العلامة (الصوتية والمعجمية) وحدة أساس اللغة فإن الجملة هي وحدة أساس الخطاب"١ هذا لا يعني أن الخطاب نشأ في خضم اللسانيات، بل هناك أراء متضاربة حول تحديد منبعه، وهو ما جاء على لسان الباحث "ألفا أزمان بري Alpha Ousmane BARRY"حين قال: "إن إشكالية الخطاب لم يتحدث عنها الدرس اللساني"لفردناند ديسوسير" الذي يحصر حقل اللسانيات في دراسة اللغة باعتبارها (نسقا من الرموز)"

وهذا ما أشار له الباحثان "باتريك شارودو- دومينيك منغنو-Patrick Charaudeau" Dominique Maingueneau_ في معجمهما "معجم تحليل الخطاب " Dictionnair d'Analyse du Discoursفي إطار حديثهما عن نشأة هذا المفهوم، إذ "لم ينشأ تحليل الخطاب داخل علوم اللغة عن فعل مؤسس، ولكنه أتى من التقاء تيارات منطلقاتها شديدة الاختلاف ظهرت في أوروبا وأمريكا في الستينيات، ولا يزال الالتقاء يتطور يوما بعد يوم؛ وكلها تدور على دراسة الإنجازات المتجاوزة للجملة، شفويا كان الإنجاز أو مكتوبا."

فالخطاب ليس نتيجة للدرس اللساني الذي يهتم بدراسة اللغات الطبيعية، بل يختلف في "اللغات الطبيعية من حيث حجمه، فيرد جملة أو سلسلة من الجمل أو نصا متكاملا كما يختلف من حيث نمطه فيكون خطابا سرديا أو خطابا وصفيا أو خطابا حجاجيا أو خطابا فنيا أو خطابا علميا إلى غير ذلك من الأنماط الخطابية المعرفية".

فالخطاب يتفرع إلى مجموعة من الأنواع بحسب السياق والموضوع الذي يشتغل عليه، فهو يضم أنواعا متعددة من الخطابات من مثل: الخطاب الشعري والنثري والديني...

وإن كان الخطاب يتعدد بتعدد العناصر المشكلة له، فهو يرتبط بعنصر مهم يشكل جزءا منه، إنه المتلقي الذي بدونه لا يمكن للخطاب أن يتحقق، فالمتلقي والخطاب وجهان لعملة واحدة، ونظرية التلقي التي لا يمكن أن نقول قد جاء بها الرائد الكونستانسي "هانز روبرت ياوس Hans Robart jauss " بل نعترف أنه من الأوائل الذين سموها نظرية وهذا راجع لحظورها في سياقات عند العرب وغيرهم خاصة في مراعاة مقتضى الحال وتلقي الشعر وأسباب النزول والتفسير حتى وإن غاب عنهم التأسيس لمفاهيمها الإجرائية كما نلاحظ عند أقطاب مدرسة كونستونس الألمانية إذ ركزت على هذه الإزدواجية بين الخطاب والمتلقي، وبشكل أدق يمكن أن نلمس ذلك في العملية التواصلية، التي تتكون من المرسل والمرسل إليه؛ إذ أن الأول ينتج الخطاب والثاني يتلقاه وفي مرحلة متقدمة مع "هانز روبرت ياوس Hans Robart " jauss"فولفغانغ إيزر wolfgang iser"وكادامير Gadamer أصبح المتلقي بدوره ينتج خطابا خاصا به من خلال عملية مَلء الفراغات أو ما يسمى بجمالية الفجوات التي تتركها الكتابة.

إذ يتبين أن العلاقة القائمة بين الخطاب ومتلقيه إلزامية، وهو ما سنلاحظه من خلال هذه المقالة المتواضعة.

فبناء على ما سبق صار لزاما علينا طرح إشكالات تهم الخطاب، والتلقي، وكيفية الربط بينهم.

هناك مجموعة من الأسئلة تفرض علينا نفسها، سنحاول الإجابة عنها، وذلك لما لهذه القضية من تشعبات، وزوايا تتناثر بين ما هو نظري وتطبيقي. يمكن الإشارة إليها في مقال آخر أو بفتح الباب أمام باحثين آخرين.

وسيكون ذلك من خلال تقديم خصائص الخطاب أولا، والتلقي ثانيا مع محاولة الربط بين هذه المفاهيم، هذا سيكون الجانب.

فكما سبق أن أشرنا لا يمكن أن نخفي أن الخطاب مفهوم زئبقي هلامي لا يمكن القبض عليه من زاوية واحدة، فقد تعددت تعاريفه وتنوعت بتنوع المجالات التي يشتغل عليها وباختلاف الدراسات التي اعتمدته ووفق السياق الذي ورد فيه، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر "بول ريكول Paul Ricoeur " الذي يعرف الخطاب باعتباره "حدث، أي أن شيئا ما يحدث عندما يتكلم أحدنا، وتفرض هذه النظرية، نظرية الخطاب كحدث، نفسها بمجرد ما نأخذ بعين الاعتبار العبور من لسانيات الكلام أو الرموز، إلى لسانيات الخطاب أو الإرسالية. ومصدر التمييز كما نعلم هو "فردناند دوسوسير" و "لوى يلمسليف"، يميز الأول بين ال"لغة "و ال"كلام "، والثاني بين ال"تصور" وال"استعمال". من هذه الثنائية نستنتج نظرية الخطاب" وانطلاقا من هذا التعريف يتضح بأن بول ريكول اعتبر الخطاب نتيجة للدرس اللساني، وهو ما أشار له "غاردينار" (١٩٣٢/١٩٨٩) حين أقر بأن الخطاب هو"الاستعمال بين الناس لعلامات صوتية مركبة لتبليغ رغباتهم أو آرائهم في الأشياء"

أما "مشال فكو" يشير إلى أن ما يمكن تسميته خطابا "هو مجموعة ملفوظات تنتمي إلى نفس التشكيل الخطابي" والمقصود بذلك أنواع الخطابات المتشاكلة، كقولنا خطاب صحفي، ومدرسي، وتلفزي... وأنواع أخرى خاصة بمتكلمين مخصوصين، من مثل خطاب الممرضات والعائلات... ومنه يمكن القول أن لفظ الخطاب يتردد بالاقتران بوصف آخر، وهو ما يبرهن لنا سبب تعدد التعريفات؛ لأن الخطاب فعل "يجمع بين القول والعمل، فهذا من سماته الأصلية، وليس في هذا تشتيت بقدر ما فيه من غنى وسعة في التصنيف، وقد ورد مفهوم الخطاب عند العرب قديما، كما قد ورد عند الغربيين مع درجات من التفاوت أو الاقتراب في معناه"

والثقافة العربية تداولت مفهوم الخطاب، منذ بداية نزول الذكر الحكيم على سيدنا محمد صلى الله عليه والسلام، إذ ورد بصيغ متعددة، من بينها صيغة الفعل في قوله تعالى: { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } والمصدر في قوله تعالى: {رب السموات والأرض وما بينهما الرحمان لا يملكون منه خطابا} وفي قوله تعالى عن داود عليه السلام: {وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ} ففي هذه الآية أتى لفظ الخطاب "اسم دال على الكلام وهو في الأصل مصدر سماعي للرباعي خاطب وزنه فِعال بكسر الفاء" " فمعنى فصل الخِطاب البين من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطبُ به لا يلتبسُ عليه ... وهو كلامه في القضاء والحكومات وتدابير الملك والمشاورات"

كما انه ورد عند النحاة باسم المفعول في قولهم (المُخَاطَبْ) لدلالة على طرف الخطاب الآخر، الذي يوجه المرسل كلامه إليه، وذلك في نطاق حديثهم عن المضمرات ومنه قول "ابن يعيش" في شرحه "والمضمرات لا لبس فيها، فاستغنت عن الصفات؛ لأن الأحوال المقترنة بها قد تغني عن الصفات، والأحوال المقترنة بها: حضور المتكلم والمخاطب والمشاهدة لهما، وتقدم ذكر الغائب الذي يصير به بمنزلة الحاضر المشاهد في الحكم...ثم المخاطب والمخاطبَ تلو المتكلم في الحضور والمشاهدة" هذا لأن ذكر طرفي الخطاب كفيل في عملية إيصال المعنى .

ومنه كذلك ما جاء على لسان "الزمخشري" في معجمه (أساس البلاغة): "خطب خاطبه أحسن الخطاب وهو المواجهة بالكلام، وكان يقوم الرجل في النادي في الجاهلية،

فيقول خطب واختطب القوم فلان، فدعوه إلى أن يخطب إليهم، ونقول له: آنت الأخطب البين الخطبة، فتخيل إليه أنه ذو البيان في خطبته"

تبعا لما سبق، يمكن الجزم أن مفهوم الخطاب ليس دخيلا على الثقافة العربية، بل ورد بصيغ مختلفة سواء في القران الكريم أو في علوم أخرى كعلم النحو والصرف وأصول الفقه والبلاغة... بحسب ما يقتضيه السياق، كما أن الدراسات العربية الحديثة وظفت مفهوم الخطاب بمعناه الحديث، إذ استقته من الدراسات الغربية الحديثة ومن نظريات الخطاب عند هاريس ومشال فكو ....

بيد أن هناك من يشير إلى أن مفهوم الخطاب في الدراسات الحديثة لم ينشأ مع الدرس اللساني، وعلى رأسهم الباحث الكندي"ألفا أوزمان باري Alpha Ousmane Barry "حين أقر في مقال له عنونه ب: "الأسس النظرية لتحليل الخطاب LES BASES THÉORIQUES EN ANALYSE " DU DISCOURSبأن الدرس اللساني لـ"فردناند دوسوسير Ferdinand de SAUSSURE "لم يكن أول من طرح نظرية الخطاب، وذلك لأنه اشتغل على اللغة باعتبارها نسقا من الرموز système de

singesبعيدا عن كونها خطابا، وهو ما أشار إليه الباحثان "باتريك شارود" و"دومينيك منغنون " Patrick Charaudeau- Dominique Maingueneauفي معجمهما "معجم تحليل الخطاب " Dictionnaire d'Analyse du Discoursإذ وافقا رأي "ألفا أوزمان باري Alpha Ousmane " Barryعلى أن الخطاب لم يكن منبعه من اللسانيات.

ويدافع "بول ريكول" عن موقفه الذي ينتصر فيه للدرس اللساني، لاعتباره أول من تحدث عن الخطاب، من خلال تمييزه بين لسانيات الكلام، ولسانيات الخطاب، وهذه الأخيرة هي التي تجعل اللغة تلحق بالخطاب "وتتجاوز نفسها كنسق، وتتحقق كحدث، وبدخول الخطاب في تقدم الفهم، يتجاوز الخطاب نفسه بصفته حدثا في الدلالة"، وهو ما جاءت به نظرية "فعل الكلام (Speech-Act) "التي سنجدها عند "أوستين " و"سورل" اللذان يعتبران أن فعل الخطاب يقوم "على تراتبية أفعال تابعة موزعة على مستويات ثلاثة:

١ -مستوى الفعل التعبيري أو الافتراضي: فعل القول

٢ - مستوى الفعل (أوالمفعول) اللاتعبيري: ما نفعله قولا

مستوى الفعل المولد: ما نفعله بكوننا نتكلم"١

إذن هناك ثلاث مستويات تشكل لنا نظرية لسانيات الخطاب، مستوى الفعل اللاتعبيري ومستوى فعل القول ومستوى الفعل المولد، والتي نستشف من خلالها أن اللسانيات تستحضر الكلام من الحدث والخطاب، ويتضح ذلك جليا من خلال الخطاطة التالية:

والخطاب يولد داخل الحوار مثلما تولد إجابته الحيوية، ويتكون داخل فعل متبادل مع كلمة أخرى، بداخل الموضوع، فالخطاب يمحور موضوعه بفضل الحوار "هذا لأن الصوغ الحواري الداخلي للخطاب يجد تعبيره داخل سلسلة من خصائص الدلالة والتركيب والتأليف لم تدرسها مطلقا الألسنية والأسلوبية إلى يومنا هذا"

ومنه يمكن القول إن مفهوم الخطاب نشأ داخل الحوارات التي لم تكن، لا للسانيات ولا للأسلوبية، اليد في تشكيله، وهو ما أشرنا له سابقا عند الدارسين العرب الذين عرفوا الخطاب انطلاقا من فعل التخاطب.

وإذا ما ربطنا هذه الحوارات بالحدث الذي جاءت به لسانيات الخطاب، سنجد أن كليهما يصفان الخطاب باعتباره فعلا Acte أو فاعلا Actant ففي "السميائيات، ومع إلتحليل البنيوي، يسمى المصطلح (فاعل) مختلف الشخصيات المساهمة في الحدث ويمكن النظر إليها من مستويات مختلفة: مستوى سطحي ومستوى عميق وكل مستوى من هذين المستويين ينطوي على خصائص تركيبية تشكل بنية الخطاب.

وهذا ما نجده في نظرية "أوستين و سورل Speech Act "المتعلقة بكيفية إنجاز الأشياء بالكلام وهي نظرية تعنى باكتشاف نوع خاص من الملفوظات (الملفوظات الإنجازية)، التي آثر العديد من الدارسين استعمال عبارات من نوع:

- أعمال الخطابacte du discours
- أعمال القول acte de paroles

ومنه أتى الحديث عن (Acte du discours) أعمال الخطاب، أو (Acte de paroles)أعمال القول، وهو ما يفضله مؤلفون آخرون.

ذلك لأن الخطاب مفهوم زئبقي تقود الدارسة فيه إلى قضايا جديدة تظل في استمرار دائم علينا أن اكتشافها .

وقد استعمل مفهوم الخطاب في الأدبيات الحديثة لأول مرة مع (هايمز) Hymese إذ أُطلق على أحد المفهومين:

الأول: "أنه ذلك الملفوظ الموجه إلى الغير، بإفهامه قصدا معينا "٣ وهو ما جاء عند العرب قديما في صيغة المخاطب والمخاطبة اللذين يوجه إليهما المتكلم الحديث بغية إفهامهم معنى ما.

الثاني: "الشكل اللغوي الذي يتجاوز الجملة ".

ويعتبر الباحث "قيوم" من الدارسين الغربيين الذين اشتغلوا على مفهوم الخطاب بمعناه الأول، حيث انطلق من الثنائية التي أصبحت معهودة منذ "سوسير Ferdinand de SAUSSURE"اللغة والكلام et parole longe ، إذ فضل استعمال كلمة (discours) عوض" (parole) ذلك ليؤكد على ما يكتسبه الإنجاز اللغوي من أوجه ربما لا يحويها لفظ كلام مباشر، مثل: الوجه الكتابي – الحركات الجسدية – السياق" وهكذا نتفق مع من يقول بأن اللغة موجودة بالقوة، في حين أن الخطاب هو الذي يوجدها بالفعل.

"بمعنى آخر يحدد (بنفنست) الخطاب بمعناه الأكثر اتساعا بأنه كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما."

أما من ناحية اعتبار الخطاب مفهوما يتجاوز الجملة، فهو الغالب على جل الدراسات الحديثة، والتي تتجسد من خلالها تلك العلاقة الرابطة بين الخطاب والسياق واللغة في إطار الاستعمال، إذ تمنح المرسل مجموعة من الامتيازات لتحقيق أهدافه، وهو ما سبقت الإشارة له من قبل (أوستين و سورل) في نظريتهما فعل الكلام Speech Acte التي تبرز العلاقة المتبادلة بين نظام اللغة وسياق استعماله، مع التركيز على المرسل وكيفية اغتنامه كافة المستويات اللغوية بما يفرضه السياق، مثل المستوى الفونولوجي بتوظيف التنغيم، والنظم التركيبي، وإنجاز الأفعال اللغوية .

وهو ما نلتمسه عند الباحثين "باتريك شارودو- دومينيك منغنو- Patrick Charaudeau" Dominique Maingueneauفي معجمهما "معجم تحليل الخطاب "Dictionnaire d'Analyse du Discoursإذ يشيران إلى أن الخطاب شكل من أشكال الفعل، وأنه لا انفصال له عن السياق، وهذا ما جاء به "ميخائيل باختين" حين قال "إن الخطاب يعيش خارج ذاته، داخل تثبيت حي لموضوعه، وإذا ابتعدنا كلية عن ذلك التثبيت، فلن يبقى لنا فوق الأذرع سوى جثة الخطاب العارية التي لن تعلمنا شيئا عن وضعه الاجتماعي ولا عن مصائره"

والمقصود هنا بالموضوع هو السياق الذي يثبت لنا الخطاب ويوجهه، ذلك لأن كل خطاب يوجد خارج موضوعه (سياقه) يخرج من دائرة الخطاب ولا يمكن أن يكون إلا قولا.

والمتلقي حاضر بحضور فعل الخطاب فهو جزء منه، ذلك إن لم نقل أحد مرتكزاته الأساسية، التي لا يمكن للخطاب أن يتم دونه، وقد اهتم العرب بالمتلقي قديما كما اهتموا بالخطاب، إلا أن الجانب التنظيري كان غائبا عنهم ذلك لاشتغالهم بالجانب التطبيقي على الشعر والقرآن الكريم والحديث الشريف، وهنا أحب أن أشير إلى أنني لا أحاول أن ألتمس وجود نظرية التلقي في تراثنا بدعوى السبق والريادة، ولكن النظرة الموضوعية إلى ما كتبه علماؤنا العرب عندما بحثوا في أنواع الخطابات سواء منها الشعرية أو النثرية، اتضح أنهم عرفوا هذه النظرية و كانت تطرح في علوم البلاغة ك "البيان والتبيين" للجاحظ، "عيار الشعر" لابن طباطبا، و"دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني، و"مناهج البلغاء" لحازم القرطاجني، ودراسات أخرى، وحتى لا يكون الكلام فضفاضا أستحضر قول عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" ذلك حين حديثه عن الفصاحة إذ يقول: إن "التوق إلى أن تقرّ الأمور قرارها، وتوضع الأشياء موضعها، والنزاع إلى بيان ما يشكل، وحل ما ينعقد، والكشف عما يخفى، وتلخيص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالحجة، واستظهارا على الشبهة واستبانة للدليل." فعن تحليل ما ورد عن الجرجاني سنجد أن كل العلوم التي كانت عند العرب تهدف بالأساس إلى عملية الإقناع وإزالة اللبس عن الكلام في محاولة للإشارة إلى المكانة التي تخص المتلقي.

كما نجد أن الاهتمام بالمتلقي حاضر كذلك في علوم النحو، خاصة في الحديث عن المخاطِب والمخاطَب وهما طرفي الرسالة التواصلية، "إذ يجد المرء، في أي مسارٍ تواصلي، باثا أو (مرسِلاً)، ورسالة، ومرسولاً إليه، (أو متلقيا)، وغالبا يتجلى البات والمرسَلُ إليه نحوياً، عبر الرسالة"

بالاستناد إلى هذا يمكن نخلص إلى أن الاهتمام بالمتلقي حضر في الثقافة العرب بشتى أنواعه، لكن ليس بنفس المفاهيم والمصطلحات النظرية التي جاءت بها مدرسة كونستونس الألمانية؛ وذلك راجع إلى كون العرب اتجهوا إلى الاهتمام بالجانب التطبيقي على حساب الجانب التنظيري.

وفي النظريات الحديثة، خاصة تلك الغربية نجذ؛ الجانب التنظيري في هذا المجال تحت اسم "نظرية التلقي" أو "جماليات التلقي"، والتي أتت بعد البنيوية التي كانت تقتل القارئ والمؤلف معا ليبقى أمامها النص ولا شيء غير النص، وسرعان ما حلت مدرسة "كونستونس الألمانية" التي ستنتقد بشكل كبير إلى البنيوي.

والحديث عن المتلقي وجمالية التلقي خاصة "بمفهومها الحديث يضعنا وجها لوجه أمام إنجازات الرائد الكونستانسي "هانز روبرت ياوس Hans Robart jauss "صاحب هذا المفهوم،...فقد كان اهتمام ياوس يتوجه أساسا إلى تاريخ الأدب" هذا بالإضافة إلى أنه بدأ بنقد الاتجاهات الشائعة كالبنيوية، لدراسة تاريخ الأدب والتماس بديل لها، من خلال المزج بين مزايا الماركسية والشكلانية ليخرج من هذه الثنائية بما سماه "جمالية التلقي"، وهي نظرية تتجه إلى ذلك التفاعل الخطابي بين المؤلف والمتلقي، إذ أن هذا الأخير أصبح يتجاوز كونه مستقطبا أو متلقيا سلبيا للرسالة إلى المشاركة في العملية الإبداعية من خلال إعادة نسج خيوطها وفي عمليات إنتاج الخطابات بصفة عامة، فالقارئ اليوم لا يقرأ بهدف المتعة فقط كما عهدناه في الكتابات الكلاسيكية، بل أصبح يبحث عن مفتاح اللعبة الإبداعية، وعن جماليات الخطاب لإنتاج خطاب موازي له، والذي لا يكون إلا بحوزة المبدع كما يعتقد، ليقتحم بوابة هذا العمل المتلقي وهو موقن أن المفتاح في يد صاحبه.

ومنه فنقطة "البدء في نظرية "فولفغانغ إيزر wolfgang iser " هي تلك العلاقة الديالكتيكية التي تجمع بين النص والقارئ وتقوم على جدلية التفاعل بينهما "

ويمكن القول بأن "أيزر" يتحدث عن تلك العلاقة التي تربط النص بالقارئ أو المتلقي حين وصفها بالديالكتيكية، كما أن هذه العلاقة تحدث عنها "رومان انجردان Roman ingarden"حين أقر بأن "العمل الأدبي يمنحنا ببساطة (مظاهر تخطيطية) sechematize d Aspects هذه المظاهر هي التي تجعل القارئ على علاقة وثيقة بالعمل الأدبي، ويمكن من خلالها إنتاج الموضوع الجمالي Asthetic object، وإيزر مند البداية يؤكد على أنه لا يجب أن نصنع في الاعتبار النص المقدم لنا فقط بل يجب أن نهتم كذلك بالأفعال المصاحبة للتلقي، ولهذا وضعنا النص في مركز الاهتمام هو والأفعال المتضمنة داخل الاستجابة لهذا النص"

منه نستنتج أن العمل الأدبي يحتوي على قطبين وهما:

القطب الفنّي(Artistic pole)

"النصّ."

القطب الجمالي(Aesthetic pole)

"القارئ"

فمن خلال هذه الخطاطة التي مثلنا بها للقطبين النص والمتلقي، تبرز تلك العلاقة الجدلية أو الديالكتيكية التي تحدث عنها إيزر، كما تبرز لنا كيف يعمل القارئ على إنتاج المعنى.

كما أن تصورا كهذا للظاهرة الأدبية يتأسس بشكل أساسي على ما يسميه "إيزر " بـ "(أفق الانتظار) Erwariungs horisont الجمهور القارئ، وهو التصور الذي يحتل مكانة هامة في أعمال كارل بوبرKarl Popper ، والذي وجد قبل ذلك عند هايدجر Heidegger وهوسيل Husserl وكادامير Gadamer، وهم ثلاثة من كبار المفكرين (بالنسبة للمنظر الألماني) " إلا أن ياوس يستخدم مصطلح آخر سماه "أفق التوقعات Horizon of Expectations محددا به مجموعةً من المعايير الثقافية والطروحات والمقاييس التي تشكل الطريقة التى يفهم بها القراء ويحكمون من خلالها على الخطابات

المتنوعة في مختلف الأزمنة ." والمقصود بأفق التوقع عند ياوس "ما يتوقَّعه المؤلف من القارئ في إدراك عمله"

من خلال هذا نستشف أن المهمة الأولى لجماليات التلقي تأسست أساسا على تشكيل أفق الانتظار في الخطاب، وهنا سنجذ فولفغانغ إيزر Wolfgang Iser في كتابه "فعل القراءة نظرية جمالية التجارب (في الأدب)" يطلق على الخطاب والقارئ مفهومين جديدين يشكلان قطبان وهما: القطب الفني والقطب الجمالي .

هنا تكمل أهمية المتلقي الذي يعمل على كشفه عن نوايا المخاطِب، ولا يمكن للمتلقي أن يكشف عن نوايا المخاطِب، إلا بتفاعله مع الخطاب من خلال تلك المعرفة القبلية التي ينطلق منها لتحليل خطابه، إذ أن "النص لا يجاوز ذاته إلا من خلال وبواسطة القارئ، هذا يعني أن القارئ يؤسس أيضا وهْماً ما".

ومنه يتبين أن المتلقي حين يتفاعل مع الخطاب ينشأ وعيا خاصا به، يتفق فيه مع الخطاب أو يخالفه، ذلك ما يكسبه قدرة على الوصول إلى مستوى مضايقة المخاطِب من خلال تأويل خطابه ومحاورته للكشف عن أسراره.

والتأويل يدفعنا إلى الحديث عن مفهوم آخر في نظرية التلقي، وهو مفهوم "المسافة" التي تعتبر "شرطا للتأويل ومكونا رئيسيا للوجود من أجل النص، أي للإصغاء لما يقوله النص" ذلك لأن المسافة هي التي تسمح بتعدد القراءات، ومنه التأويل المتعدد الأبعاد.

ويمكن أن نشير إلى المسافة باعتبارها ذلك "الفرق بين كتابة المؤلف وأفق توقع القارئ، بمعنى أنها المسافة الفاصلة بين التوقع الموجود لدى القارئ والعمل الجديد"

هكذا نستشف أن المتلقي حين يتلقى الخطاب، فهو يوظف مجموعة من الخصائص التي تجعله مشاركا فيه، وهي خصائص عرفت في أعمال تطبيقية لدارسين عرب، من خلال أفق التوقع الذي يتمثل في مكتسبات القارئ المعرفية هذه المكتسبات التي تمكن القارئ من تأويل النص والمرور عن طريق الظاهر الحرفي إلى الباطن الإشاري، لكن لا يمكن لذلك أن يحصل إلا من خلال مجموعة من الشروط ترتبط بما يسمى "الهيرمينوطيقا" هذا بالإضافة إلى ما يطلق عليه بجمالية الفجوات أو الفضاءات البيضاء التي يتركها المخاطب، وهي فراغات لا توجد بشكل اعتباطي، "فكل جملة تمثل مقدمة للجملة التالية وتسلسل الجمل يحاصر بمجموعة من الفجوات غير المتوقعة، والتي يقوم القارئ بملئها مستعيناً بمخيلته" هذه الفجوات أو ما يسمى بجمالية الفجوة، يتعين على المتلقي الفطن تأويلها ليصل إلى مستوى الإدراك الجمالي للخطاب، الذي يسمح له بإعادة إنتاج الخطاب وفقا لطريقته.

الهوامش:

١- "ميخائيل باختين" الخطاب الروائي " ترجمة "محمد برادة" دار الفكر للدراسة والنشر والتوزيع الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٧.

٢- "بول ريكول" من النص إلى الفعل" أبحاث التأويل ترجمة "محمد برادة "حسان بورقية الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية الطبعة الأولى ٢٠٠١م

٣- "باتريك شارودو - دومينيك منغنو" معجم تحايل الخطاب ،ترجمة: "عبد القادر المهيري- حمادي صمود" مراجعة صلاح الدين الشريف دار النشر سيناترا المركز الوطني للترجمة تونس ٢٠٠٨ سلسلة اللسان الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
٤- أحمد المتوكل" الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفية و البنية والنمط، منشورات الاختلاف الطبعة الأولى ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
٥- عبد الهادي بن ظافر الشهري" "استراتيجيات الخطاب" مقاربة لغوية تداولية، الطبعة الّأولى ٢٠٠٤ دار الكتب الوطنية، توزيع دار أوبا للكباعة والنشر.
٦- "محمود طافي" "الجدول في إعراب القرآن وصرفه و بيانه مع فوائد نحوية هامة" الطبعة الثالثة١٤١٦هـ /١٩٩٥م دار الرشيد دمشق المجلد الثاني عشر الجزء الثالث و العشرُون.
٧- "العلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري" "تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقوال في وجوه التأويل" تحقيق وتعليق و دراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض الطبعة الأولى١٤١٨هـ/١٩٩٨م الناشر مكتبة العبيكان الرياض، الجزء الخامس.
٨- " د. سعيد بنكراد" شخصيات النص السردي –البناء الثقافي سلسلة دراسات وأبحاث ١ ، ١٩٩٤ جامعة المولى إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس.
٩- والاس مارتن "نظريات السرد الحديثة" ترجمة حياة جاسم محمد طبع بالهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٨.
١٠- رولان بارط – ريمون ماهيو- تزفيطان تودوروف- ميشال أوتن – فرناند هالين – فرانك شويرويجن" نظرية القراءة (من البنيوية إلى جمالية التلقي) ترجمة د. عبد الرحمن بوعلي ١٩٩٥ دار نشر الجسور،٤٠ شارع رمضان الكاضي –وجدة- الطبعة الأولى ١٩٩٥.
١١- "رولان بارت" الدرجة الصفر للكتابة ترجمة محمد برادة دار الطليعة للطباعة و النشر الطبعة الأولى ١٩٨٠.
١٢- "أحمد فرشوخ" جمالية النص الروائي مقارنة تحليلية لرواية "لعبة النسيان" دار الأمان للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤١٧- ١٩٩٦.
١٣- "فولفغانغ إيزر" فعل القراءة نظرية جمالية التجربة (في الأدب) ترجمة: د حميد لحمداني/ د الجلالي الكدية نشر وتوزيع مطبعة النجاح الجديدة – البيضاء.
١٤- "عبد القاهر الجرجاني" "دلائل الإعجاز في علم المعاني" دار الكاتب العلمية الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ-١٩٧٧م.
١٥- "أمبرتو إيكو" القارئ في الحكاية (التعاضد التأويلي- في النصوص الحكائية) ترجمة: أنطوان أبو زيد، الناشر: المركز الثقافي العربي الطبعة، الأولى:١٩٩٦.
١٦- "سامي إسماعيل" جماليات التلقي (دراسة في نظرية التلقي عند هانز روبرت و فولفغانغ ايزر) دار النشر: المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة:الطبعة الأولى _ القاهرة ٢٠٠٢.
١٧- "حسن بن حسن" النظرية التأويلية عند ريكور نشر:ج.ج.تنسيفت الطبعة: الأولى ١٩٩٢.
١٨- "أبو أحمد حامد" الخطاب والقارئ نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة دار النشر الرياض ، مؤسسة اليمامة ، ١٩٩٧.
١٩-